ساعة مع الاستاذ الجليل

أحمد لطفى السيد بك

دقائق مجهولة من حياة الامام محمد عبده

كانت نسائم الأصيل فى مصر الجديدة قد أخذت تنفح جوها المحرور بالطراوة المنعشة حين غمزنا الجرس مستأذنين على الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد بك ، وكان جوسقه الانيق غريقاً فى سكون فلسفى حالم ، وحديقته البهيجة ترف على جوانبه الأربعة بالجمال والعطر فتذهب عن صمته الانقباض وعن سكونه الوحشة ، وكان كل شىء يقع عليه طرفك فى الحديقة والدار يعلن عما وراءه من مزاج حكيم ، وذوق فنان ، ونفس شاعرة

كان الأستاذ على عادته يستريض مع أرسطو فى كتابه (الطبيعة) وهو السفر الثالث الذى يخرجه للناس من آثار المعلم الأول ، وفى رأيه أنه أجل كتب أرسطو وأدلها على سمو عبقريته وسر نبوغه . لقينا فى البهو لقاء ذوى البيوتات الكريمة والأبهاء القديمة فسلم فى أريحية وحيا فى هشاشة ، ثم خيرنا بين مجلس الدار ومجلس الحديقة فاخترنا هذا ، وجلس ثلاثتنا على كراسى قصيرة القوائم وثيرة المقاعد حول منضدة مستديرة فوقها مظلة صيفية على طراز ما يستعمله المصطافون على شواطىء البحار وفى فنادق الجبال ، وجلس الأستاذ الحكيم قبالتنا على كرسى له ظلة كالعلبة المستطيلة تنى الجالس فيها وهج الشمس أما كلبه الضخم الجميل فقد ذهب يتهادى فى المماشى المزهرة ، ومن حين إلى حين كان يعود ليداعب السامرين على قدر مايفهم من الدعابة .

أخذ الاستاذ يطارحنا الحديث - على نحو ما كان يتحدث إلى تلاميذه صديقه أرسطو زعيم المشائين فى مماشيه المظللة - بصوته النقى العذب ، وجرسه العربى الواضح ، وأدائه المتئد الموزون ، ولهجته (الشرقاوية) التى ينثرها عمداً فى خلال الحديث فتكسبه ظرفا ورقة . ولطفى بك مسامر حلو النغمة ، فكه اللسان ، متفنن الحديث ، متخير اللفظ ، فلو رحت تكتب ما يقول لكان قريب الشبه مما تكتب . وبراعة الحديث صفة امتازت بها طبقته التى تأثر بها وأثر فيها من أمثال محمد عبده وسعد زغلول والهلباوى فأنت فى حضرتهم لا تشتهى الكلام لان لذتك فى أن تسمع ، ولا تثير الجدال لان همك فى أن تستفيد . ومجلس لطفى بك يصدق الصورة التى رسمتها له فى ذهنك قبل أن تلقاه من شهرته المستفيضة وأعماله المنشورة : فبديهته حاضرة وفكره نفاذ وبيانه أخاذ وإطلاعه شامل ومنطقه مستقيم وهو يتوخى فى حديثه الافادة واللذة فسامعه لا ينفك راضى العقل ريان العاطفة

وقصارى ما تقوله فيه أنه خلاصة الجيل الماضى بأسره ، وتطبيق صحيح لمدرسة الافغانى وعصره . وأوضح مظهر لهذا التطبيق كان فى نزعته السياسية وطريقته الكتابية . ففى (الجريدة) نهج للناس سياسة مصرية خالصة لا تتصل بالدعوة العثمانية ولا بالجامعة الاسلامية ، وفى (الجريدة) ابتكر للكتاب أسلوبا لفظه قدر لمعناه ، ووصفه طبق على موصوفه ، وسبيله قصد إلى غايته . فكان مذهباً جديداً جرى عليه صحفيون إلى اليوم وأصدق الامثلة عليه أسلوب صاحب البلاغ .

ولطفى بك بارع فى سلسلة الحديث سريع إلى اقتناص المناسبة فلا تخشى على الحديث فى مجلسه أن يبوخ ولا على الصموت فى محضره أن يحرج .

قال حينما استقر بنا الجلوس يعيد التحية ويفتتح السمر : أنا اقرأ ماتكتبونه فى (الرسالة) بشوق ولذة . . ، ويسرنى ان الكتابة فى مصر قد بلغت من الكمال الفنى حد

جد ، والأوتار التى تهز النفس لتملأها أملا ، والأوتار التى تبعث النغم يصور بطولة ، والتى تبث النغم ليوقظ من سبات — عود الأديب الشرقى على نحو عود المغنى الشرقى ، أشجى أغانيه أحزنها ، وخير نغماته أبكاها

فهل يتقى الله الفنانون والأدباء فى الجيل الناشىء فيصلحوا أغانيهم ويكملوا ما نقص من أوتارهم ، ويستدركوا ما فاتهم ، وينشدوا طويلا نشيد الحياة ، كما أنشدوا من قبل طويلا نشيد الموت ؟

الاعجاب ، فأصبحت للالفاظ دلالتها الدقيقة ، وللاوصاف بيانها المقصود ، أما الكتابة فى (أيامنا) فكانت بالتقريب ، فمعانى الكاتب تقريبية وألفاظها الدالة عليها تقريبية ، والأثر الذى تتركه فى نفس القارىء — ان كان — مبهم أو تقريبى فقال له أحدنا :

— ولكن سواد القراء يقرأون اليوم بالتقريب

— طبيعى ! فالكاتب أيام كان يكتب بالتقريب كان القارىء لايقرأ واذا قرأ لايفهم فلما ارتقى الكاتب الى التدقيق ارتقى القارىء الى التقريب .

ولقد تصرف كتاب العصر فى فنون الكتابة فعالجوا بها شتى الاغراض فى براعة وحذق . ولذلك لا أوافق الدكتور طه على جعله النثر لسان العقل والشعر لسان العاطفة فان من النثر ما يكون شعرا

ثم تشاجن الحديث وتشقق بعضه من بعض فتناول المويلحيين والخضرى وشوقى وأبا النصر والأفغانى والطويل حتى أدى إلى علاقته بالشيخ محمد عبده فقال :

— تخرجت فى مدرسة الحقوق وانا فى الثانية والعشرين من عمرى فرغبت الاسرة فى زواجى وأوعز أبى الى أمى أن تكلمنى فى ذلك فأبيته ، ولم يشأ والدى أن يفاوضنى بنفسه فى ذلك الامر فلجأ الى الشيخ عبده وكانت المعرفة قد اتصلت بينهما بسببى فدعانى الشيخ الى داره . . . .

— لقد كان حسنا من الامام أن يجمع قلوب الشباب حوله ويتدخل بالنصح فى أمورهم الخاصة

— لم يكن الامر فى التعميم والاطلاق على مافهمت ، فقد كان الشيخ فى علاقته بالناس على انقباض وتحفظ والشباب أنفسهم هم الذين سعوا اليه والتفوا حواليه لانه كان بطبعه رجل ثورة ، ولان اتصاله بصالون نازلى هانم ومصطفى فهمى وكرومر أوهن أسبابه بالقصر وأيبس مابينه وبين الخديو ، ولانه كان يدعو الى الاصلاح والتجديد فكان قريبا بنزعته الى هوى الشبان ، ولانه كان ينتدب فى كل عام لامتحان طلاب الحقوق المنتهين وقد اتصلت به معرفتى بسبب ذلك الامتحان نفسه . . .

— شت ! ! فكف الكلب المطيع عن النباح وكان ينبح شيئا أو شخصا خارج السور

— Viens ici فجاء الكلب الوديع حتى دنا من سيده

— Couches toi فانتبذ مكانا قريبا ونام

ثم عاد الاستاذ الى حديثه يقول : اقترحوا علينا فى امتحان الانشاء ان نكتب فى هذا الموضوع :

كيف كان للحكومة حق عقاب المجرم ؟ وجعلوا زمن الاجابة اربع ساعات على ما اظن . فكتبت المذاهب الاربعة التى قررها العلماء فى هذه المسألة ثم عقبت عليها ففندتها ونفيت أن يكون للحكومة على أى شكل من اشكالها (حق) عقاب المجرم لانها قائمة على القوة لا على الحق . وأسرفت فى التدليل على ذلك حتى ملأت الكراسة ثم خرجت فذكرت لرفاقى ما اجبت به فاضطربوا واكتأبوا وقرروا جميعاً انى لا محالة راسب ، ثم اشتد من جانبهم اللوم والتقريع حتى ذهب من نفسى كل امل فى النجاح فلما كان يوم الامتحان الشفهي وقف الشيخ فقرظ موضوعى وكان قد وضع عليه الدرجة النهائية ، ولكنه نصح لى أن اقتصد الآن فى هذه الآراء اشفاقا على وكم للشباب من شطط فى الآراء .

زرت الشيخ بعد ذلك فى جهة شارع الشيخ عبد الله نائبا عن فريق من الطلبة التمس منه ان يقرأ لنا درساً فى التفسير بمسجد الفتح على مقربة من مدرسة الحقوق ، فأجاب الملتمس وانضم الينا طلبة من دار العلوم فكنا بين الثلاثين والاربعين . وهنالك قويت الصلة بينى وبين الشيخ حتى بلغت حد الالفة .

وفى سنة ١٨٩٧ سافرت فى الشتاء الى جنيف لغرض سياسى ، فانتهزت هذه الفرصة وانتسبت إلى جامعتها فى دروس فى الادب والفلسفة أقامتها فى الصيف خاصة للحاصلين على درجة علمية ، واتفق أن جاء الشيخ وسعد بك زغلول وقاسم بك أمين مصطافين وكان المرحوم قاسم بك يشتغل فى كتاب تحرير المرأة وكان يقرأ لنا غالبا بعد الظهر فى كتاب L'intelligence للفيلسوف الفرنسى (تين) ومن العجيب أننا كلما التوى علينا فهم عبارة كان الشيخ . وهو أقلنا علما باللغة الفرنسية ، يجلو لنا غامضها .

— سافر سعد باشا وقاسم بك وبقى الشيخ عبده فانتسب معي الى دروس الأدب واقبل عليها بجد ومثابرة ، واذكر ان أستاذ الادب كان قد قرر علينا فيما قرر كتاب (روى بلاس) لفكتور هوجو نقرأه وندرسه ثم نناقشه وننقده فى الدرس أمامه فلما جاء يوم المناقشة أدلى كل طالب برأيه . والاستاذ يعقب على الآراء فيخطىء ويصوب ويصحح حتى نخرج آخر الامر بطائفة صالحة من الآراء الصائبة . وخرج الشيخ شديد الاعجاب بما رأى وسمع وقال : هكذا يكون التعليم ! نحن فى بلدنا لا نعلم واعتزم ان يدخل هذه الطريقة فى الازهر .

كان مراحنا ومغدانا قبل الدرس وبعده الى حلوانية تجاه الكلية تدعى (اكسلين) ويأبى الشيخ رحمه الله إلا ان يدعوها (اخصلين) على الرغم من وسامتها الظاهرة . وكان زيه وعمامته قيد الابصار وموضع التساؤل ومستجر الحديث فى كل مكان نحله — وهنا ذكر الاستاذ بعض الطرف التي تدل على ظرف الشيخ ولطف روحه ورقة شمائله ثم قال : . . . وكان من عادتنا أن المتقدم منا ينتظر المتأخر عند هذه الحلوانية حتى نذهب الى الدرس معاً . ففى ذات يوم جئت قبله فانتظرته ثم انتظرته حتى مضى الوقت الذى كان يصل فيه عادة اذا تأخر وكانت الجامعة قد استقدمت أحد العلماء الطبيعيين ليحاضر فى استحضار الارواح والدخول عام والزحام لا بد شديد فلما أزف موعد المحاضرة ولم يبق الا دقائق . قلت للفتاة : اذا جاء الشيخ فأخبريه انى انتظرته الى قبيل المحاضرة . ثم مضيت فدخلت مدرج المحاضرات من بابه الاعلى وأخذت مجلسى بين الحضور . ولشد ما كانت دهشتي حين وثبت الى عينى عمامة الشيخ جالسا فى الصفوف الامامية بين سيدتين جميلتين ، يميل على هذه مرة وعلى تلك اخرى !! فداخلنى من أمر الامام مالم أكن اعهده . ثم خيل الى ان الزمن يبطىء والدرس يثقل لان رغبتى كانت تلح فى الوقوف على جلية الخبر . فلما انتهت المحاضرة اسرعت فى النزول اليه وفى عينى دهشة وعلى وجهى تعجب وبين شفتى كلام ! وتبين الشيخ ذلك فى هيئتى من بعيد ، فصاح قبل ان احدثه :

— تعال يا لطفى اقدمك الى البرنسيس ! !

وقدمنى الى الاميرتين نازلى وخديجة !

وكان ذلك اول معرفتى بالاميرتين المصريتين فدعتانا الى الشاى فى الفندق الفخم الذى تنزلانه .

وفى سنة ١٨٩٨ رغب الشيخ ان يقضى معى اياما بالبلد . فما علم بمقدمه رجال الادارة والقضاء بالمنصورة حتى توافدوا الى لقائه ، وفيهم المرحوم حشمت باشا ، وحفل المجلس بالناس على اختلافهم ودار الحديث . فقال الشيخ فيما قال ان السيد جمال الدين كان يقول : اذا اردت ان تحكم على اخلاق امة فاجلس فى قهوة من قهوات الفقراء ، فما انطبع فى نفسك من الانفعالات فاحكم به على هذه الامة من غير تحرج ، فأخذت انقض هذا الحكم وأفنده والشيخ يدافع عنه ويؤيده فاستحييت ان الج فى معارضة الشيخ فى المجلس فأمسكت .

وفى العصر ركبنا جوادين ، وخرجنا نرتاض فى المزارع والحقول فعدت الى ذلك الموضوع فقال الشيخ لا أدرى لماذا لا تصدق هذا ؟ أليست قهوة الفقراء تجمع الفقير الذى سيبقى فقيرا ، والفقير الذى سيصير غنيا ، والغنى الذى صار فقيرا ؟

وفى سنة ١٩٠٥ اذكر ان الشيخ كان قادما من الوجه القبلي واظنه كان فى السودان ، فنزل عندى بالمنيا وكنت يومئذ نائبا بها ، وحضر للسلام عليه رجال القضاء الاهلى والشرعى ووجوه البلد . فلما احتشد المجلس بالجمع قال احد العلماء من رجال المحكمة الشرعية ان كثيرا من النصارى يدخلون فى الاسلام فتضاعف بذلك شغلنا . فقال له الامام : فيم تشتغل ايها الشيخ ؟ فقال نعلمهم اركان الدين . فقال له : يكفى ان تقول له صل وصم وزك وحج فقال ولا بد ان نعلمه الوضوء . فقال قل له اغسل وجهك ويديك إلى مرفقيك وامسح رأسك واغسل رجليك ، فقال ذلك لا يكفى ولا بد ان نعلمه حدود الوجه من اين يبتدىء والى اين ينتهى ، فقال الشيخ بصوته الجهير فى شىء من الحدة : سبحان الله ياسى الشيخ ! ! قل له يغسل وجهه ! كل انسان يعرف حدود وجهه من غير حاجة الى مساح ! !

وهنا استأذنا الاستاذ الجليل فى الانصراف على نية العودة اليه من حين الى حين فنستزيد من طرائف هذه الاحاديث .

الزيات